مُقدّمة

تثير دراسة الفكر السياسي عند مفكري الإسلام الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام حول بعض القضايا الخلافية المبهمة التي شغلت تاريخ الفكر ألإنساني عموما والسياسي الإسلامي على وجه الخصوص. فهل كان للحضور المباشر والقوي للدين في خبايا السياسة الدور الكبير فيما ساد المجتمعات الإسلامية من صراعات وخلافات وفتن ومذاهب؟ هل ساعد ذلك على ظهور تيارات ثقافية وسياسية مناوئة ومناهضة أحيانا ومدعمة ومسانده كثيرا لأنظمة حكم وطبائع ملك طغت على كل محاولات الإصلاح والخروج إلى دائرة الحرية والتقدم.

هل تأثر مفكروا الإسلام وفلاسفته بهذا التداخل فشحذت قواهم الفكرية وأطلقت العنان لتصوراتهم اليوتوبية في إمكانية وجود عالم من المثل والفضيلة في مجتمعات ابتعدت إلى حد كبير عن عالم القيم والفضيلة وانغمست في شرور وآثام وخطايا الرذيلة؟.

يحاول هذا الكتاب أن يجيب عن هذه التساؤلات وغيرها مما آثاره تطور الفكر السياسي الإسلامي عبر العصور منذ ظهور فيلسوف الإسلام الأول أبو نصر الفارابي في مطلع عصر النهضة الإسلامية والظهور القوي للحضارة

الإسلامية وسرعة انتشارها وتأثيرها على غيرها من الحضارات حتى عصر ابن الأزرق ومحاولته السياسية في انتشال الأمة الإسلامية من السقوط في الأندلس.

فقد سعى الفارابي منذ أوائل القرن الثالث الهجري إلى تأسيس مدينة فاضلة ينعم فيها الجميع بالحب والخير والعدل والسلام فتتحقق السعادة المنشودة أنها سعادة روحانية وهي فاضلة بآرائها ومبادئها لأن الدين حاميها وحافظها. فهل حقق له مشروعه السياسي ما كان ينشده.

أما المرادي الحضرمي- وبعدما يقرب من قرنين من محاولة الفارابي- فلم يسع كسابقه (الفارابي) إلى تنظير سياسي مثالي لواقع مشوه وتصور الانتشال من خلال يوتوبيا مثالية. ولكنه اهتم في مشروعه السياسي بالجانب العملي والواقعي في الحكم بأكثر من الجانب النظري إذ أنه ربط بين المقومات الاجتماعية للجماعة الإسلامية وبين القيم الأخلاقية والسياسية مع تأكيده على الحق الإلهي للملوك في الحكم حتى يضمن الاستقرار والاستمرار لتلك الأمة العريقة التي تقف كالطود الشامخ رغم ما يحاط بها من دسائس ومؤامرات وما يجتاحها من صراعات وفتن.

حين أوشك القرن الخامس الهجري على الانتهاء يظهر أبو بكر بن الصائغ (ابن باجه الأندلسي) ويحاول من خلال متوحدة الوصول إلى ما لم يحققه سابقيه.

وإذا كان سابقوه كالفارابي والمرادي الحضرمي قد بدأ بالمدينة وإمكانية وجود الفضلاء وتحقق المثالية بها. فإن ابن باجه الأندلسي قد بدأ بالمتوحد

(الفرد) الذي يسعى إلى أن يؤلف مع غيره من المتوحدين معه بأفكارهم ومبادئهم جماعة متوحدة فيكونوا مدينة من المتوحدين، وإذا كان المتوحد هو المثل الأعلى للأفراد، فإن المدينة الفاضلة أو الكيان السياسي الذي يفترضه ما هو إلا المثل الأعلى للمجتمعات والدول، كانت مدينة المتوحد هي محاولة ابن باجه لإصلاح الأخلاق وهذا الإصلاح يتجاوز نطاق المجتمع إلى نطاق الإنسانية بأكملها فإذا تحقق الوجود الإنساني الكامل لكل فرد. فهل ينجح ابن باجه في محاولته الإصلاحية في اعتباره المتوحد النموذج الأكمل للبشرية؟!

ثم يظهر ابن رشد بعد ابن باجه بنحو مائة عام حاصدًا ثمرات العقل العربي الإسلامي طوال تاريخ الحضارة الإسلامية مضيفًا إليه ثمرات الحضارة الإغريقية والأفلاطونية الأرسطية فيحاول تحقيق طفرة في مجال الحياة المدنية والسياسية باستخدام فكرة وحدة العقل البشري الناجمة من اتحاد العقل الهيولاني بالعقل الفعال في صورة عقل كلي يمثل وحدة العقل البشري دون وساطة دينية أو روحية وبحيث تستطيع البشرية تحقيق سعادتها بقواها الخاصة دون الاعتبار بنفوذ أهل الجدل (علماء الكلام) أو الفقهاء أو الصوفية، ورغم أن ابن رشد في مشروعه السياسي ابتعد عن المثل الأعلى التأملي اليوناني وتمسك بالمثل الأعلى الحضاري الجديد في ظل ثقافة الإسلام وحضارته التي كانت تتوخى التقريب بين النظر والعمل واعتبر أن الحياة المدنية السياسية هي وحدها الجديرة بالإنسان والمتفقه مع حقيقته الاجتماعية الأصلية أقول رغم ذلك فإن مشروعة الإصلاحي لم يتحول إلى أيديولوجية حقيقية في بلاد الإسلام لأن الاتجاه العام في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي كان يشير إلى زيادة نفوذ الفوضى والإقطاع والخلاف بين الأمراء كما يشير إلى تزايد التهديد العسكري

من قبل الفرنجة للحكم الإسلامي المركزي... بينما أثمرت سياسته ومشروعه الإصلاحي في العقل الأوروبي حيث قاد التفكير إلى آفاق سياسة مدنية تستند إلى قدرة العقل البشري والعلم على تدبير شئون الحياة وتنظيمها مما قوض التدخل الكنسي وأتاح الفرصة لبناء دولة قومية علمانية ديمقراطية.

كانت نهاية الأمل والحلم مع ابن الأزرق وعبرت رؤيته السياسية في مشروعه الإصلاحي عن محاولة انتشال الأمة الإسلامية من السقوط. حاول ابن الأزرق في كتابه **"بدائع السلك في طبائع الملك"** أن يثبت أن باب الاجتهاد السياسي لم يغلق بوفاة ابن رشد وابن خلدون، فعرض فيه كل ما ذخر به الفكر السياسي الإسلامي بمعناه الواسع الذي يضم آراء ومؤلفات الفقهاء، والمحدثين، والرواة والمفسرين والمؤرخين والحكماء والفلاسفة والأدباء وعلماء الاجتماع وفلسفة التاريخ مستعينا في تحليله لطبيعة الملك وفلسفة الحكم في بلاد المغرب والأندلس بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال السلف الصالح والمأثورات الشعبية وقد استطاع صياغة ذلك في رؤية عقلية واقعية اجتماعية دينية مفسرا الواقع الإسلامي المترهل ومحاولا وضع منهج سياسي ينتشل البلاد من هوة السقوط والضياع فجاءت رؤيته رؤية موسوعية متكاملة غير بعيدة عن سياقها الزماني والمكاني للعصر الذي عاش فيه محددا أسباب اختلال الملك وانهياره سواء أكانت الأسباب مادية واقعية أم دينية غيبيه أو هما معا.

وبعد... فإن السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو هل كان الواقع السياسي في دولة الإسلام – والذي كانت تحكمه الدوافع والمصالح الذاتية – أقوى

وأكبر من أي محاولة للتعبير والإصلاح ؟؟ يبدو أنها الحقيقة المؤلمة والتي لا تزال المجتمعات العربية الإسلامية تعاني منها حتى عصرنا الحاضر.

د. زينب عفيفي

مصر الجديدة ٨/ ٣/ ٢٠١٠

obeikandl.com